خليقة أموية

تميزت لبنى أمية فى الجاهلية وصدر الإسلام خلائق عامة يوشك أن تسمى - لعمومتها بينهم - خلائق أموية، وهى تقابل ما نسميه فى عصرنا بالخلائق الدنيوية أو النفعية ويراد بها أن المرء يؤثر لنفسه ولذويه ولا يؤثر عليها وعليهم فى مواطن الإيثار.

وهذه الخلائق أعون لنا على التعريف بمعاوية من الخلائق التي ينسبها إليه المادحون والقادحون، لأن المادحين والقادحين قد يصدرون عن غرض، وقد ينوون الصدق ولكنهم يخطئون فى أمر الرجل الواحد، أما الأخلاق التى تعم قبيلا بأسره فى أجيال متتابعة فهى أصعب تلفيقًا على الملفقين وأصعب خطأ على المخطئين، فإن الإجماع على الخطأ نادر فى أخبار الناس كالإجماع على الصواب.

وهذه الخلائق الأموية دنيوية نفعية كما قدمنا، تميل بالمتخلقين بها إلى مناعم الحياة وتحبب إليهم العيش الرغد والمنزل الوثير وتغريهم بالنعم واللذات يغدقونها على أنفسهم وعلى الأقربين، فهى عندهم قسطاس البر بمن يحبون كما يحبون.

وقد عرف خيارهم، دينًا وصلاحًا، بهذه الخلائق الأموية كما عرف بها كثيرون منهم لم يشتهروا بدين ولا صلاح.

فما عرف من بنى أمية أحد أصلح من عثمان بن عفان وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما، وما تكلم متكلم عن هذين العلمين الرفيعين من بنى أمية فاستطاع أن يسكت عما طبعا عليه من حب النعمة ووجاهة الدنيا على أحسن ما يروى عن الأمويين.

كان عثمان رضى الله عنه يقول عن نفسه كما جاء فى كتاب الرياض

النضرة: "كنت رجلا مستهتراً بالنساء" وكان استهتاره بهن أن يكثر من الزواج.

وحب عثمان لاتخاذ المبانى والعمائر مشهور، وحبه لاختصاص ذوى قرباه وإغداق النعمة عليهم مشهور كذلك، وكله مما أحصاه عليه الثائرون ووجدوا فيه متسعًا للتزيد والادعاء.

وعاش بعد الإسلام محبًا للطعام الدسم والصحاف المنتقاة فحدث عمرو بن أمية الضمرى عنه قال: "إنى كنت أتعشى مع عثمان خزيرة من طبخ من أجود ما رأيت، فيها بطون الغنم وأدمها اللبن والسمن، فقال عثمان: كيف ترى هذا الطعام؟ فقلت: هذا أطيب ما أكلت قط. فقال: يرحم الله ابن الخطاب. أكلت معه هذه الخزيرة قط. قلت: نعم فكادت اللقمة تفرث من يدى حين أهوى بها إلى فمى وليس فيها لحم، وكان أدمها السمن ولا لبن فيها. فقال عثمان: صدقت! إن عمر رضى الله عنه أتعب من أتبع أثره، وإنه كان يطلب بثنيه - أى منعه - عن هذه الأمور ظلفًا - أى غلظة - فى المعيشة. ثم قال: أما والله ما آكله من مال المسلمين ولكنى آكله من مالى. وأنت تعلم أنى كنت أكثر رقريش مالا وأجدهم فى التجارة، ولم أزل آكل الطعام ما لأن منه. وقد بلغت سنًا، فأحب الطعام إلى ألينه"

وقد كان عثمان أسرع قومه إلى الإسلام لأسباب بيناها فى كتابنا "ذى النورين" .. وإنما حسب له الإسراع إلى الإسلام حيث حسب الإبطاء والتقاعد عنه للأكثرين من بنى أمية، على ديدنهم فى كل دعوة من دعوات المثل العليا أو دعوات الأريحية والإيثار، ولا موضع هنا للإطالة فى نقل أخبار المنافرات والمفاخرات التى تلم بهذا المعنى ولكننا نجملها جميعًا فى موقف القوم منم حلف الفضول وهو مشروح بتفصيلاته التى لا يشك فيها من يشكون فى تلك المنافرات والمفاخرات، فقد ظلم رجل فى جوار الحرم وباع

بضاعــة لواه بحقهــا من اشتراها فاســتغاث بذوى المروءة وقــام على شرف من الأرض يعلن شكواه، فاجـتمع بنو هاشم وبنو أســد وبنو زهرة وبنو تيم على إنصافـه وإنصاف كل مظلوم مثلــه، فلا يظلم بمكة غريب ولا قــريب ولا حر ولا عبـد إلا كانوا مـعه حـتى يأخذوا له بحـقه من أنفـسهم ومن غيرهم، وعمدوا إلى ماء من زمـزم فجعلوه فى جفنة وبعثوا به إلى البـيت فغسلت به أركانه وشربوه، ولم يـدخل فى هذا الحلف أحد من أمية وبنى عـبد شمس، بل كان الرجل منهم يود أن يـدخله فيخشى أن يحـسب خارجًا على قـومه، وقال أحدهم عتبة بن ربيعـة: لو أن رجلا وحده خرج على قومه لخرجت من عبد شمس حتى أدخل حلف الفضول.

وهذه الخلائق الأموية وضحت فى الجاهليـة وصدر الإسلام وضوحًا لا لبس فيـه قبل أن تلتـبس الأنساب ويكثـر الزواج من غيـر العشيـرة، والبناء بالجوارى من الروم والفرس والترك والبـربر، ولكنها ظلت أموية حيث تغلب الأموية فى الدم والنشأة والقدوة والجوار.

فعمر بن عبد العزيز - أشــبه الملوك فى دولة بنى أمية بالخلفاء الراشدين - كان كما جاء فى أسانـيد ابن الجوزى: "رأيته فى المدينة وهو أحسن الناس لباسًا ومن أطيب الناس ريحًا ومن أخيل الناس فى مشيته، ثم رأيته بعد ذلك يمشى مشية الرهبان".

واتفق الرواة، كابن عبد الحكم والأصفهانى وابن الجوزى فى أطراف من أسانيده، أنه كان يتطيب فى شبابه فينتظر الناس ثيابه عند الغسال ليغسلها لهم فى موضعها، وأنه كان يـرجل شعره ويتبختر فى مشيته حـتى عرفت له مشية عمـرية يحكيها الفتـيان والفتيـات، وكان يتخـتم بالجواهر ويلبس الإزار بمائة دينار، ولا يرى مرتين فى كساء واحد، وربما تأخر فى صباه عن موعد الصلاة لاشتغاله بتـرجيل شعره، وسأله مؤدبة صالح بن كسـيان مرة عن تأخره وهو

ينتظره لإقامة الصلاة، فاعتذر له بإبطاء مرجلته - أى الجارية التى تعنى بترجيل شعره - فغضب المؤدب الصارم ولامه أن يغفل عن موعد صلاته ليعنى بتسكين شعره.

وما برح الخليفة الصالح فى نصب من أمر عاداته هذه حتى أقلع عنها بعد جهد، وآب من ترف المسرفين إلى نسك المتزمتين، وقبل أنه ترف من بنى أمية، ونسك من الفاروق، لأنه ينتمى من ناحية أمه إليه.

وعلى هذا الجهد بقيت معه تلك المشية تعاوده ولا يأمن أن يسهو عن نسه فيثوب إليها فى طريقه، فجعل له قرينًا يلازمه ويصفقه بيده كلما هم أن يثوب إليها.

* * *

ولا تنس أن بنى أمية عشيرة عربية كبيرة قد تتميز بخلائقها الأموية ولكنها لا تنفصل عن المجتمع العربى ولا تشذ عن عرفه التقليدى الذى ترعاه جميع العشائر الكبرى ولو من قبيل المحافظة على المراسم والأشكال، ومن تقاليد هذا العرف أن تروض بيوت الرئاسة أبناءها على نظام كالنظام العسكرى فى صباهم وبعد بلوغهم مبلغ الشباب الذى يندب للقتال أو لتصريف الأمور، وسواء اختاروا البادية لتدريب الأبناء على هذه الرياضة أو عهدوا بها إلى المربين فى المدن والدور فلا ينشأ الناشئ منهم إلا على رياضة من هاتين الرياضيتين، وكذلك عبد العزيز بن مروان فى تربية ابنه عمر فاختار له المؤدب الذى يثقفه ويأخذه بفرائض دينه ودنياه، ولما بلغه من هذا المؤدب - صالح ابن كيسان - أن الفتى الصغير يتأخر عن موعد الصلاة لاشتغاله بترجيل شعره أرسل إليه من قبله رسولا خاصًا فأمره ألا يكلمه حتى يقص شعره ويبلغه غضب أبيه، ولا نحسب أن أحدًا من رؤساء البيت غفل عن مثل هذه الرياضة فلا يبقى لها من أثر ولا يبقى لها الأثر الضعيف. وكان عبد العزيز يعاقب

عمر ذلك العقاب وهو ينزع فى الترف منزعًا لا يستطيع ابنه - وأن إسراف - أن يذهب إلى مدى أبعد من مداه، فاقتنى الدور فى مصر وجملها بالأثاث الفاخر وجعل يهديها إلى أبنائه وذويه، واشترى أرض حلوان بعشرة آلاف دينار ليقيم عليها قصره المنيف الذى موه جدرانه بالذهب واتفق على فراشه وأثاثه عشرات الألوف، وكان له كل يوم ألف جفنة للقرى بدار الضيفان وكانت أيامه كلها كأنها أيام أعياد كما جاء فى معجم البلدان:

كل يوم كأنه عيد أضحى
عند عبد العزيز أو يوم فطر
وله ألف جفنة مترعات
كل يوم يمدها ألف قدر

وشهد هذا البذخ كله عمر وتقلب بين أعطافه، فلولا عرق من الفاروق أدركه لما تحول من هذا البذخ إلى النسك الذى ضارع به أزهد الخلفاء الراشدين.

وليس عبد العزيز - على هذا - بالمثل الذى يقال عنه أنه "نموذج" للخليقة الأموية فى الكلف بالنعمة الدنيوية والعجب بالزينة والشارة وبالقسامة والوسامة، بل كانت هذه الخليقة على أتمها فى سليمان بن عبد الملك آكلفهم بنعمة العيش حيث كانت فى طعام أو كساء أو ترف أو سرف أو خيلاء.

كان نهمًا لا يشبع ولا يرجع الخوان من بين يديه وعليه بقية، وكان يلبس الوشى على أفخر حلية وزينة ويحضر الطهاة بين يديه بالسفافيد عليها الدجاج والطير فلا يتمهل بها حتى تنضج بل يلف يده فى كمه ويتناولها من النار ويأتى عليها قبل أن تنقل إلى الصحاف، وربما صحبه عمر فى السفر وهو صائم فلا يجد على المائدة فضل طعام إذا حان موعد الإفطار، وقد مات

بالتخمة مع إصابته بالحمى وهو فى الأربعين وأبناؤه الصغار لا يصلحون لولاية العهد، فجعل ينظر إليهم وينشد:

إن بنى صبية صغار

أفلح من كان له كبار

وأمر وزيره رجاء بن حياة أن يعرضهم عليه فى الخوذات والدروع لعله يخدع نفسه بمنظر صبى منهم يصلح لولاية الملك فلم يجد منهم من يروعه أو يروقه فى تلك الأزياء. وأوصى بولاية العهد على كره لعمر بن عبد العزيز.

قال ابن الجوزى فى سيرة عمر بإسناده: "إن سليمان بن عبد الملك كان ربما نظر فى المرآة فيقول: أنا الملك الشاب . . وكان جالسًا فنظر فى المرآة إلى وجهه فأعجبه ما رأى من جماله فقال: أنا الملك الشاب، وكانت على رأسه وصيفة فقالت:

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى

غير أن لا بقاء للإنسان

ويروى فى هذا البيت فى أسانيد أخرى ومعه البيت التالى:

ليس فيما بدا لنا منك عيب

عابه الناس غير تلك أنك من

ودخل عليه المفضل بن المهلب يوم جمعة فرآه يدعو بالثياب ويلبس منها حلة بعد حلة ويتخايل بها أمام المرآة ثم يخلعها ويأتى بغيرها حتى ارتضى حلة منها فالتفت إلى المفضل سائلا: يا ابن المهلب. أعجبتك؟ قال المفضل: نعم. فحسر عن ذراعيه وهو يقول: أنا الملك الفتى

هذا هو الأموى من الأمويين، وغيره منهم يشبهه فى كل خصلة من

هذه الخصال على درجات، ومنهم معاوية رأس الدولة وأقربهم إلى أرومة الميراث.

* * *

كان فى معاوية كل خصلة من خصال سليمان بن عبد الملك ولكنه لم يسترسل فيها كما استرسل سليمان مع تطاول الزمن بعد قدوة النبوة والخلافة الأولى خلافة الراشدين.

جاء فى الطبرى أنه كان يأكل فى اليوم سبع مرات بلحم ويقول: "والله ما أشبع وإنما أعيا"

ولم يروها الطبرى وهو يشهر بها، بل رواها وقال بعدها: "وهذه نعمة ومعدة يرغب فيها كل الملوك"

وسبق الطبرى هذا الخبر بتعليل لهذه النهمة من دعوة رسول الله عليه فى صباه.

فمن أخبار الإمام أحمد المسندة إلى ابن عباس أنه قال: "كنت ألعب مع الغلمان فإذا رسول الله قد جاء فقلت: ما جاء إلا إلى. فاختبأت على باب فجاءنى فخطانى خطاة أو خطاتين ثم قال: اذهب فادع لى معاوية، وكان يكتب الوحى. فذهبت فدعوته له فقيل: أنه يأكل! فأتيت رسول الله فقلت: إنه يأكل. فقال: اذهب فادعه. فأتيته الثانية فقيل أنه يأكل، فأخبرته. فقال فى الثالثة: لا أشبع الله بطنه . . . فما شبع بعدها".

ولم يزل بعد الإمارة يفرط فى مأكله من اللحوم والحلوى والفاكهة حتى ترهل وعجز عن الثيام طويلا فكان يخطب على المنبر وهو جالس، وكان أول من جلس فى خطبة منبرية.

وشغف بالأكسية كما شغف بالأطعمة؛ فلبس الحرير وتختم بالذهب

والجوهر وولع بالثياب المزخرفة والموشاة وتزين بالزينة التى كرهها الإسلام لعامة الرجال فضلا عن الخلفاء والأمراء، وكان لا يملك أن يترك الزينة بالكساء فى صدر الدعوة والخلافة وفى الزمن الذى كان يتحرج فيه من إغضاب ولى الأمر، وهو عمر بن الخطاب.

قال عبد الله بن المبارك فى كتاب الزهد كما رواه الطبرى: "قدم علينا معاوية وهو أبيض بض وباص، أبض الناس وأجملهم، فخرج إلى الحج مع عمر، فكان عمر ينظر إليه فيعجب منه، ثم يضع إصبعه على متن معاوية ثم يرفعها عن مثل الشرك فيقول: "بخ بخ. نحن إذن خير الناس أن جمع لنا خير الدنيا والآخرة". فقال معاوية: "يا أمير المؤمنين! سأحدثك أنا .. ما بك إلا ألطافك نفسك بألطف الطعام وتصبحك حتى تضرب الشمس متنيك وذوو الحاجات وراء الباب"، فقال معاوية: يا أمير المؤمنين. علمنى أمتثل قال راوى الخبر: فلما جئنا ذا طوى أخرج معاوية حلة فلبسها، فوجد عمر منها ريحًا كأنه ريح طيب، فقال: يعمد أحدكم فيخرج حاجًا مقلا حتى إذا جاء أعظم بلدان الله حرمة أخرج ثوبيه كأنهما كانا فى الطيب فلبسهما؟. فقال معاوية: إنما لبستهما لأدخل بهما على عشيرتى وقومى. قال عمر: والله لقد بلغنى إذاك هنا وفى الشام".

وزاد راوى الخبر فقال: "والله يعلم أنى لقد عرفت الحياء فيه، ثم نزع معاوية ثوبيه ولبس اللذين أحرم فيهما".

روى عمر بن يحيى بن سعيد الأموى عن جده قال: "دخل معاوية على عمر وعليه حلة خضراء. فنظر إليها الصحابة، فلما رأى ذلك عمر وثب إليه بالدرة فجعل يضربه بها، وجعل معاوية يقول: الله الله فى يا أمير المؤمنين. فرجع عمر إلى مجلسه فقال له القوم: لم ضربته يا أمير المؤمنين وما فى قومك مثله؟ والله ما رأيت إلا خيراً وما بلغنى إلا خير، ولو بلغنى

غير ذلك لكان منى إليه غير ما رأيتم. ولكن رأيته - وأشار بيده - فأحببت أن أضع منه ما شمخ".

ولم يكن زهوه بسمته وسماته دون زهو سليمان، فكان سصفر لحيته كأنها الذهب .. وقد أصابته لوقة فى آخر عمره - وهى كأثر الضربة فى الجلد - فكان يستر وجهه ويقول: "رحم الله عبداً دعا لى بالعافية فقد رميت فى أحسنى ولولا هواى فى يزيد لأبصرت رشدى".

وهواه فى يزيد لون من ألوان هذه الخلة الأموية، فكل الآباء يحبون الأبناء، ولكن القوم لا يحسبون الأب باراً بابنه إلا إذا "نعمه" أو شغل بتنعيمه فيما ينظر فيه الآباء من رغد أبنائهم وفيما يتركونه لهم ويتغاضون عنه كأنهم يجهلونه. وقد أرسل معاوية ابنه يزيد إلى بادية بنى كلب - أخواله - ليتربى بينهم على الفروسية والبلاغة العربية، ولكنه فعل ذلك كأنما يفعله قياماً بما تقتضيه مراسم السلف ولم يتبعه بما هو ألزم ليزيد من ضروب التربية والرياضة على كبح الأهواء ولا سيما الهوى الذى ينظر إلى حرمات الناس وأعراض الرعية، فقد علق يزيد بزوجة عبد الملك بن سلام زينب بنت اسحاق، ومرض بحلها مرضاً أدفنه فاختال أبوه حتى عرف سر مرضه من خصيان القصر، فأرسل فى طلب أبى هريرة وأبى الدرداء فقال لهما: أن لى ابنة أريد زواجها ولا أرضى لها حليلا غير ابن سلام لدينه وفضله وشرفه، فانخدع ابن سلام وذهب إلى معاويةى يخطب بنته وقيل أن معاوية وكل الأمر إلى أبى هريرة ليبلغها ويستمع جوابها، فأجابته بما اتفقت عليه مع أبيها وقالت له أنها لا تكره ما اختاروه، ولكنها تخشى الضر وتشفق أن يسوقها إلى ما يغضب الله، فطلق ابن سلام زوجته واستنجز معاوية وعده فلواه به ونقل إليه عن ابنته أنها لا تأمن رجلا يطلق ابنة عمه وأجمل نساء عصره!

وكأنما كان معاوية مهموماً بشهوات ولده فى زواج أو غير زواج، فقد

حدث ابن عساكر من ترجمة خديج الخصى أن معاوية اشترى جارية بيضاء جميلة فأدخلها الخصى عليه مجردة، وبيده قضيب. فجعل يهوى به غلى جسدها ويقول: هذا المتاع لو كان لنا متاع. اذهب بها إلى يزيد ثم قال: ادع لى ربيعة بن عمر الجرشى - وكان فقيهًا - فلما دخل عليه قال: أن هذه أتيت بها مجردة فرأيت منها ذاك وذاك، وأنى أردت أن أبعث بها إلى يزيد، فقال الجرشى: لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنها لا تصلح له، فقال معاوية: نعم ما رأيت! ثم وهبها لعبد الله بن مسعدة الفزارى مولى فاطمة بنت رسول الله، وكان أسود، فقال له: بيض بها ولدك".

ونعود فنقول أن الطبرى يسند هذه الأخبار إلى أصحابها ولا يسوقها مساق التشهير، لأنه اتخذ من هذا الخبر دليلا على فقه معاوية فقال: "وهذا من فقه معاوية وتحريه، حيث كان نظر إليها بشهوة ولكنه استضعف نفسه عنها فتحرج أن يهبها لولده يزيد لقوله تعالى: ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء. وقد وافقه على ذلك الفقيه ربيعة بن عمر الجرشى الدمشقى . . ".

وما من تربية ليزيد تصلحه للخلافة بعد هذا "التنعيم" الذى يملى له فى شهواته وهو مقدم على رئاسة قريبة عهد بابن الخطاب بل بابن عفان، فإن الخليفة الثالث رضى الله عنه قد أجاز لنفسه من المتعة الدنيوية ما لم يجزه الفاروق ولكنه لم يحدث نفسه قط باقتناء الخصيان والجوارى على سنة القياصرة والشواهين، ولولا تلك الخليقة التى تمادى بها اتساع الملك فى أهوائها وغواياتها لما فات رجلا - وسط الذكاء - أن هذه التربية لا تعد إنسانًا لحياطة الملك المنتزع بالحيلة والحول قبل استقرار الأمور بين مطامع الأقرباء من العشيرة فضلا عن الغرباء.

وكان معاوية ينازع طبعه بين الخليقة الأموية وبين آداب الدين الذى يتولى خلافته، فينزل بنفسه درجات دون منزلة الخلفاء الراشدين لا فتتانه

بالدنيا واستسلامه لغوايتها، وله أكثر من كلمة فى هذا المعنى يقول فى بعضها: "إن أبا بكر سلم من الدنيا وسلمت منه، وعمر عالجها وعالجته، وعثمان نال منها ونالت منه. أما أنا فقد تضعجتها ظهراً لبطن وانقطعت إليها فانقطعت إلى" . . ويقول فى بعضها من خطبة بالمدينة: "أن أبا بكر رضى الله عنه لم يرد الدنيا ولم ترده، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها، وأما عثمان فنال منها ونالت منه، وأما أنا فمالت بى وملت بها، وأنا البنها فهى أمى وأنا ابنها، فإن لم تجدونى خيركم فأنا خير لكم".

وكأنما كان يشهد على نفسه هذه الشهادة تواضعًا من جهة وتزكية لقدرته على الملك الدنيوى من جهة أخرى. فإن كان الرعية لا يرتضونه قدوة للصلاح والتقوى، فهم مرتضوه مدبرًا لشئونهم وقائمًا على مصالح دنياهم.

* * *

ويشعر معاوية بالمنازعة بين الخليقة الأموية وآداب المروءة العربية كما يشعر بالمنازعة بينها وبين آداب الدين. فإن طالب السيادة يكره أن ينزل فى منزلة دون منازل الشرف والكرامة بين قومه، فإن لم يكره ذلك حبًا للخلق المأثور فعله يكرهه حبًا لنفسه وغيره على سيادته وعلوه فى نظر المبكرين لآداب المروءة سواء تحلوا بها أو تجردوا منها.

ومن نوادر معاوية فى هذه المنازعة المتكررة بين حلائق عشيرته وآداب العرب عامة أنه جلس يومًا مع خاصته يسألهم فيما بقى له ولهم من لذات الحياة بعد ذهاب الشباب، فإذا هى عنده لذات لا تعدو مذاق الشراب السائغ وسروره بالنظر إلى بنيه، ثم نبهه إلى أسفافه هذا فانتبه ولم يكابر طبعه، لأن الأمر وراء المكابرة بإجماع العرف وإجماع الدين.

روى الواقدى أن عمرو بن العاص "دخل يومًا على معاوية بعد ما كبر ودق ومعه مولاه وردان، فأخذا فى الحديث وليس معهما أحد غير وردان،

قال عمرو: يا أمير المؤمنين! ما بقى مما تستلذه؟ فقال: أما النساء فلا أرب لى فيهن، وأما الثياب فقد لبست من لينها وجيدها حتى وهى بها جلدى فما أدرى أيها ألين، وأما الطعام فقد آكلت من لذيذه وطيبه حتى ما أدرى أيه ألذ وطيب، وذكر مثل ذلك عن الطيب وغيره من مناعم الحياة. ثم قال: فما شيء ألذ عندى من شراب بارد فى يوم صائف، ومن أن أنظر إلى بنى وبنى بنى يدورون حولى".

"وعطف معاوية سائلا: فما بقى منك يا عمرو؟

"قالت عمرو: مال أغرسه فأصيب من ثمرته ومن غلته "فالتفت معاوية إلى وردان فقال: ما بقى منك يا وردان؟

"قال وردان: صنيعة كريمة سنية أعلقها فى أعناق قوم ذوى فضل واصطبار لا يكافئوننى بها حتى ألقى الله تعالى، وتكون لعقبى فى أعثابهم بعدى.

"فقال معاوية: تبًا لمجلسنا سائر اليوم . . أن هذا العبد غلبنى وغلبك . . . !"

خليقة أموية عربية. مضى الرجل على سجيته فلم يخطر له أن يستبقى من متاع الدنيا الذى عجز عنه إلا شيئًا يذاق وشيئًا يسره من النظر إلى ذريته، ثم نبهه المنبه إلى المكرمات المأثورة فلم يجحدها ولم يعزب عنه حميد أثرها.

وإن شئت فقل خليفة أموية وكفى. فإن من الأثرة ما يوحى إلى صاحبه ألا ينزل طواعية عن مأثرة يرتفع بها غيره، ولا يسمعه أن ينكرها.

وهكذا كانت الخليقة الأموية مع المروءة العربية فى كل مأثرة محمودة بين عشائر العرب الكبرى وبين العرب خاصة وعامة، وأولها مناقب الشجاعة والكرم والنخوة، فما كان فى وسع بنى أمية أن يغمضوا أعينهم عن هذه

المناقب ولا أن يصغروا من حقها، ولكن التسليم للمنقبة شيء والجهد فى تحصيلها شيء آخر، ولهذا مضى تاريخ بنى أمية فى الجاهلية وليس بينهم واحد معدود حين يعد العرب فرسانهم المقدمين وأجوادهم المشهورين وذوى النجدة من صفوة عشائرهم ونخبة ساداتهم، وظهر فيهم الشجعان فى صدر الإسلام كيزيد بن أبى سفيان - وهو أخ غير شقيق لمعاوية ولكنه لا يحسب عندهم ولا عند غيرهم من فرسان هاشم فى جيل واحد، كعلى وحمزة.

وسأل معاوية نفسه - وسائله عمرو بن العاص -: والله ما أدرى يا أمير المؤمنين أشجاع أنت أو جبان؟ فقال:

شجاع إذا ما أمكنتنى فرصة

فإن لم تكن لى فرصة فجبان

ولم يؤثر لمعاوية موقف واحد يحسب من مواقف الشجاعة البينة، بل حسب عليه أنه كان يأوى إلى قبة حيط بها الحراس فى معارك صفين، وأنه أسرع إلى فرسه فى ليلة الهرير لينجو بحياته، ثم هذا الخطر بعض الشيء فراجع نفسه وتراجع إلى مكانه وهو آمن من عاقبة هذه الرجعة، بعد أن خفت الهجمة على موضعه من ميدان القتال.

وليس من أخبار بنى أمية فى الجاهلية وصدر الإسلام خبر واحد ينفى عنهم هذه الخليقة الغالبة عليهم جميعًا من الأثرة والكلف بالمناعم الدنيوية وتقديمها على غيرها من مناقب الإثار والمثل العليا.

وبهذه الخليقة يفسر كل عمل من أعمال معاوية على انفراده بينهم بصفات من الحزم لم يشتهروا جميعًا بمثلها، وهو مع حزمة "الدنيوى" هذا لم يصطدم بالخليقة الأموية إلا وهن منه الحزم فى هذا المصطدم. فكان من الحزم ألا يتوسع فى أبهة الملك أو أبهة "الهرقلية والكسروية" كما كان

المسلمون يسمونها فى صدر الإسلام، ولكنه لم يكد يملك حتى صنع ما يصنع القياصرة والأكاسرة من اقتناء الخصيان والجوارى والتوسع فى بذخ القصور والقدور، وكان من الحزم أن يروض يزيد على كبح الشهوات فلم يكد يسمع أنه اشتهى امرأة فى عصمة رجل حتى احتال حيلته لامتناعه بما اشتهى، وأن النهازين من مؤرخى العصر القديم ليفسرون صلاته الجامعة فى المقاصير بخوفه من الغيلة بعد مؤامرة الثلاثة التى قتل فيها على رضوان الله عليه. ولئن صح هذا لما نفى عنه تلك الخليقة الأموية التى تلوذ بالحيطة حيث لا يلوذ بها المبرأون منها، فقد قتل عمر وعلى ولم يلجأ الحسن أو الحسين إلى المقاصير أو إلى الحرس الميسر لهما وهو غير قليل، وقد كانت أبهة المواكب من دأب معاوية إذ كان - بعد - على ولاية الشام من قبل الفاروق. فلما رآه الفاروق فى موكبه أعرض عنه ثم عنفه وسأله عن اتخاذ المواكب مع احتجابه عن ذوى الحاجات، فاعتذر له بموقعه من بلاد العدو، ودأب على اتخاذ المواكب وتسيير الجند بين يديه قبل أن يخشى غيلة من مغتال.

عند هذه الخليقة الأموية تفسير الكثير مما جهله المؤرخون الأقدمون أو تجاهلوه، ولا سيما المؤرخين النهازين من المنتفعين أو المتطوعين.

* * *